

تفسير البحر المحيط

@ 387 المُمْفَلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ

خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلَفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ
وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ . .

لما ذكر ما كان عليه الكفار من ادعاء الولد والشريك له ، وكان تعالى قد أعلم نبيه صلى
الله عليه وسلم) أنه ينتقم منهم ولم يبين إذ ذاك في حياته أم بعد موته ، أمره بأنه يدعو
بهذا الدعاء أي إن ترني ما تعدهم واقعاً بهم في الدنيا أو في الآخرة فلا تجعلني معهم ،
ومعلوم أنه عليه السلام معصوم مما يكون سبباً لجعله معهم ، ولكنه أمره أن يدعو بذلك
إظهاراً للعبودية وتواضعاً ، واستغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا قام من مجلسه
سبعين مرة من هذا القبيل . وقال أبو بكر : وليتكم ولست بخيركم . قال الحسن : كان يعلم
أنه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه . .

وجاء الدعاء بلفظ الرب قبل الشرط وقبل : الجزاء مبالغة في الابتهاال إلى الله تعالى
والتضرع ، ولأن الرب هو المالك الناظر في مصالح العبد . وقرأ الضحاك وأبو عمر إن الجوني
ترئني بالهمز بدل الياء ، وهذا كما قرء فأما ترئن ولترؤن بالهمز وهو إبدال ضعيف ، ثم
أخبر تعالى أنه قادر على تعجيل العذاب لهم كما كانوا يطلبون ذلك وذلك في حياته عليه
الصلاة والسلام ولكن تأخيره لأجل يستوفون ، والجمهور على أن هذا العذاب في الدنيا . ف قيل
: يوم بدر . وقيل : فتح مكة . وقيل : هو عذاب الآخرة . .

ثم أمره تعالى بحسن الأخلاق والتي هي أحسن شهادة أن لا إله إلا الله و { السَّيِّئَةُ }
الشرك . وقال الحسن : الصفح والإغضاء . وقال عطاء والضحاك : السلام إذا أفحشوا . وحكى
الماوردي : { ادْفَعْ } بالموعظة المنكر والأجود العموم في الحسنى وفيما يسوء و {
الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } أبلغ من الحسنه للمبالغة الدال عليها أفعال التفضيل ، وجاء في
صلة التي ليدل على معرفة السامع بالحالة التي هي أحسن . قيل : وهذه الآية منسوخة بآية
السيف . وقيل : هي محكمة لأن المداراة محثوث عليها ما لم يؤد إلى ثلم دين وإزراء بمروءة
{ زَحْنٌ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ } يفتني أنها آية موادة ، والمعنى بما يذكرون
ويصفونك به مما أنت بخلافه . .

ثم أمره تعالى أن يستعيذ من نحسات الشياطين والهمز من الشيطان عبارة عن حثه على
العصيان والإغراء به كما يهمز الرائض الدابة لتسرع ، ثم أمره أن يستعيذ بسورة الغضب
التي لا يملك الإنسان فيها نفسه . وقال ابن زيد : همز الشيطان الجنون ، والظاهر أنه أمر

بالاستعادة من حضور الشياطين في كل وقت . وعن ابن عباس عند تلاوة القرآن . .
{ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ } قال الزمخشري : { حَتَّى } يتعلق بيصفون
أي لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت ، والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض
والتأكيد للإغضاء عنهم مستعيناً بما على الشيطان أن يستنزله عن الحلم ويغريه على
الانتصار منهم ، أو على قوله وإنهم لكاذبون انتهى . وقال ابن عطية : { حَتَّى } في هذا
الموضع حرف ابتداء ، ويحتمل أن تكون غاية مجردة بتقدير كلام محذوف والأول أبين لأن ما
بعدها هو المعنى به المقصود ذكره انتهى . فتوهم ابن عطية أن حتى إذا كانت حرف ابتداء
لا تكون غاية وهي إذا كانت حرف ابتداء لا تفارقها الغاية ولم يبين الكلام المحذوف المقدر
 . وقال أبو البقاء { حَتَّى } غاية في معنى العطف ، والذي يظهر لي أن قبلها جملة
محذوفة تكون حتى غاية لها يدل عليها ما قبلها التقدير : فلا أكون كالكفار الذين تهمزهم
الشياطين ويحضرونهم { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ } ونظير حذف هذه الجملة
قول الشاعر :

فياً عجباً حتى كليب تسبني .

أي يسبني الناس حتى كليب ، فدل ما بعد حتى على الجملة المحذوفة وفي الآية دل ما
قبلها عليها . وقال القشيري : احتج تعالى عليهم وذكرهم قدرته ثم قال : مصرون على
الإنكار { حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ } تيقن ضلالتهم وعابن الملائكة ندم
ولا ينفعه الندم انتهى . وجمع الضمير في { ارْجِعُون } إما مخاطبة له تعالى مخاطبة
الجمع